

الأحوال والمقامات

الدرس
13

أهداف الدرس

1. أن تعرف مفهوم الأحوال والمقامات.
2. أن أدرك الفرق بين الأحوال والمقامات.
3. أن أتحدى بأحوال أهل السلوك ومقاماتهم.

تمهيد

للقلوب أسرار يعلمها علام الغيوب، وعلى قدر ما وَقَر في القلب يكون السبق، والسالك إلى الله له ظاهر وباطن تعتريه تقلبات القلب، ولا مناص له في سيره وسلوكه من المجاهدات والمكابدات التي تُثَبَّت قلبه على دينه، وتثمر الأحوال والمقامات التي تُرَقِّيه في سيره إلى ربه. فما هي الأحوال؟ وما هي المقامات؟ وما الفرق بينها؟

نص الانطلاق

1. قال الإمام القشيري - رحمه الله -: «المقام: مَا يَتَحَقَّق بِهِ الْعَبْدُ بِمَنَازِلَتِهِ مِنَ الْآدَابِ بِمَا يَتَوَصَّلُ إِلَيْهِ بِنَوْعٍ تَصَرَّفَ، وَيَتَحَقَّقُ بِهِ بِضَرْبٍ تَطْلُبُ وَمَقَاسَاةً تَكْلِفُ، فَمَقَامُ كُلِّ أَحَدٍ مَوْضِعُ إِقَامَتِهِ عِنْدَ ذَلِكَ وَمَا هُوَ مُشْتَغِلٌ بِالرِّيَاضَةِ لَهُ، وَشَرْطُهُ أَنْ لَا يَرْتَقِيَ مِنْ مَقَامٍ إِلَى مَقَامٍ آخَرَ مَا لَمْ يَسْتَوْفِ أَحْكَامَ ذَلِكَ الْمَقَامِ، فَإِنْ مِنْ لَا قَنَاعَةَ لَهُ لَا يَصِحُّ لَهُ التَّوَكُّلُ، وَمَنْ لَا تَوَكُّلَ لَهُ لَا يَصِحُّ لَهُ التَّسْلِيمُ، وَكَذَلِكَ مَنْ لَا تَوْبَةَ لَهُ لَا تَصِحُّ لَهُ الْإِنَابَةُ، وَمَنْ لَا وَرَعَ لَهُ لَا يَصِحُّ لَهُ الزَّهْدُ، وَالْمَقَامُ هُوَ الْإِقَامَةُ كَالْمَدْخَلِ بِمَعْنَى الْإِدْخَالِ، وَالْمَخْرَجُ بِمَعْنَى الْإِخْرَاجِ، وَلَا يَصِحُّ لِأَحَدٍ مَنَازِلَةُ مَقَامٍ إِلَّا بِشُهُودِ إِقَامَةِ اللَّهِ تَعَالَى إِيَّاهُ بِذَلِكَ الْمَقَامِ لِيَصِحَّ بِنَاءُ أَمْرِهِ عَلَى قَاعِدَةٍ صَحِيحَةٍ.

والحال عِنْدَ الْقَوْمِ: مَعْنَى يَرُدُّ عَلَى الْقَلْبِ مِنْ غَيْرِ تَعَمُّدٍ مِنْهُمْ وَلَا اجْتِلَابٍ وَلَا اكْتِسَابٍ لَهُمْ، مِنْ طَرَبٍ، أَوْ حَزَنٍ، أَوْ بَسْطٍ، أَوْ قَبْضٍ، أَوْ شَوْقٍ، أَوْ انْزِعَاجٍ، أَوْ هَيْبَةٍ، أَوْ احتِياجٍ؛

فالأحوال مواهب، والمقامات مكاسب، والأحوال تأتي من غَيْر الوجود، والمقامات تحصل ببذل المجهود، وصاحب المقام مُمَكَّن في مقامه، وصاحب الحال مُتَرَقٍّ عَنْ حاله». [الرسالة القشيرية، 154/1 بتصرف].

2. قال الإمام أبو حامد الغزالي-رحمه الله-: «الرجاء من جملة مقامات السالكين وأحوال الطالبين، وإنما يسمى الوصف مقاماً إذا ثبت وأقام، وإنما يسمى حالاً إذا كان عارضا سريع الزوال، وكما أن الصفرة تنقسم إلى ثابتة كصفرة الذهب، وإلى سريعة الزوال كصفرة الوجع، وإلى ما هو بينهما كصفرة المريض؛ فلكذلك صفات القلب تنقسم هذه الأقسام، فالذي هو غير ثابت يسمى حالاً؛ لأنه يحول على القرب، وهذا جار في كل وصف من أوصاف القلب» [إحياء علوم الدين، 142/4].

الفهم

الشرح:

- التسليم: تسليم الأحكام بلا اعتراض ولا طلب للعلة.
 - الرجاء: أن ترجو قبول العمل وجزيل الثواب عليه، وتخاف أن يُرد أو تدخله آفة تفسده.
- استخلاص المضامين:
- تأمل النصين، وأستخرج منهما الفروق بين «الأحوال» و«المقامات».

التحليل

أولاً: الأحوال عند الصوفية

1. تعريف الحال

الحال مصطلح يستعمل في مختلف العلوم، ولكل أهل فن مرادهم منه، ويقصد به لدى الصوفية ما يَرِد على القلب من: فرح، أو حزن، أو بسط، أو قبض، وعبروا عن المراد منه بقولهم «معنى يرد من الحق إلى القلب، دون أن يستطيع العبد دفعه عن نفسه بالكسب حين يرد، أو جذبه بالتكلف

حين يذهب» [موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي، للعجمي، ص 267]. وقيل في معنى الأحوال: ما يحل بالقلوب، أو تحل به القلوب من صفاء الأذكار، وقد حُكي عن الجنيد -رحمه الله- أنه قال: «الحال نازلة تنزل بالقلوب فلا تدوم» [اللمع في التصوف، للطوسي، ص 65]. ويستفاد من قول الإمام الجنيد -رحمه الله- أن الأحوال لها علاقة بالقلب وليس بالجوارح، وذكر الشيخ ابن عجيبة -رحمه الله- أن «تصفية الأعمال على قدر تصفية القلوب، وتصفية القلوب على قدر مراقبة علام الغيوب، والمراقبة على قدر المعرفة، والمعرفة على قدر المشاهدة، والمشاهدة تحصل على قدر المجاهدة ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنَّا فَتَنَّا يَتَذَكَّرُونَ﴾ [العنكبوت: 69]. وفي الحكم: «حسن الأعمال من نتائج حسن الأحوال، وحسن الأحوال من التحقق بمقامات الإنزال» والحاصل: أن من لم يتحقق بمقام الفناء لا تخلو أعماله من شوب الخل، ومن تحقق بالزوال لم ير لنفسه نسبة في عطاء ولا منع، ولا حركة ولا سكون، ولم ير لغيره وجودا حتى يرجو منه نفعا ولا خيرا» [البحر المديد، 1/298]. فالحال ما يرد من الحق على القلب، دون أن يستطيع العبد دفعه عن نفسه بالكسب حين يرد، أو جذبه بالتكلف حين يذهب؛ إذ «الأحوال مواهب» وهي فضل من الله ولطف بقلب العبد.

2. الحال بين الدوام والزوال

اختلف أرباب التصوف في مسألة دوام الحال أو زواله، ورأي الإمام الحارث بن أسد المحاسبي -رحمه الله- أن الحال يدوم، كما يفيد قوله: «إن المحبة والشوق والقبض والبسط كلها أحوال، فإذا كان دوامها غير جائز فلا المحب محب، ولا المشتاق مشتاق، وما لم يصر هذا الحال صفة للعبد فلا يقع عليه اسمه، ولذا فهو يقول: إن الرضا من جملة الأحوال». ويرى أغلب الصوفية وعلى رأسهم «سيد الطائفة» الإمام الجنيد الذي وصف الحال بأنه «نازلة تنزل بالقلب فلا تدوم». ومنها المراقبة، وهي النظر بصفاء اليقين إلى المغيبات، ثم القرب، وهو: جمع الهم بين يدي الله تعالى بالغيبة عما سواه، ثم المحبة، وهي: موافقة المحبوب في محبوبه ومكروهه. [آداب المريدين، للسهروردي، ص 23 بتصرف].

ثانياً: المقامات عند الصوفية

. تعريف المقام

يقصد بالمقام عند الصوفية ما يتحقق العبد بمنازلته من الآداب مما يتوصل إليه بنوع تصرف، وهو عندهم «عبارة عن طريق الطالب وموضعه في محل الاجتهاد، وتكون درجته بمقدار اكتسابه في حضرة الحق تعالى» [موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي، ص 267]. فهو قيام الطالب بأداء حقوق

المطلوب بتصحيح نية واجتهاد في الطلب، فالمقام «مقام العبد بين يدي الله عز وجل، فيما يقام فيه من العبادات، والمجاهدات، والرياضات، والانقطاع إلى الله عز وجل». [اللمع في التصوف، ص 65-66]. فالمقامات اجتهاد وعمل، وهذا معنى قولهم «المقامات مكاسب» إذ «المقام ما يتحقق به العبد بمنزلته من الآداب مما يتوصل إليه بنوع تصرف، ويتحقق به بضرب تطلب، ومقاساة تكلف، فمقام كل أحد موضع إقامته عند ذلك» [موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي، ص 267].

والمقامات، مثل: التوبة، والورع، والزهد، والفقر، والصبر، والرضا، والتوكل، وغير ذلك. وقد نقل الإمام القشيري أن «أول المقامات: المعرفة، ثم اليقين، ثم التصديق، ثم الإخلاص، ثم الشهادة، ثم الطاعة، والإيمان اسم يجمع هذا كله...»، وأول الواجبات هو المعرفة بالله سبحانه وتعالى، والمعرفة لا تحصل إلا بتقديم شرائطها وهو النظر الصائب، ثم إذا توالى الأدلة وحصل البيان صار بتوالي الأنوار وحصول الاستبصار كالمستغني عن تأمل البرهان وهو حال اليقين، ثم تصديق الحق سبحانه فيما أخبر عند إصغائه إلى إجابة الداعي فيما يخبر من أفعاله سبحانه في المستأنف؛ لأن التصديق إنما يكون في الإخبار، ثم الإخلاص فيما يتعقبه من أداء الأوامر، ثم بعد ذلك إظهار الإجابة بجميل الشهادة، ثم أداء الطاعات بالتوحيد فيما أمر به، والتجرد عما زجر عنه» [الرسالة القشيرية، 318/1].

ونقل عن غيره من أرباب التصوف - ومنهم الإمام الغزالي - أن أول المقامات: التوبة، ثم الإنابة، ثم الزهد، ثم التوكل...، فلا يمكن ادعاء الإنابة دون توبة؛ إذ التوبة أصل كل مقام، وهي أول المقامات، وهي كالأرض للبناء، قال الإمام الغزالي - رحمه الله -: «فإن التوبة عن الذنوب بالرجوع إلى ستار العيوب وعلام الغيوب مبدأ طريق السالكين، ورأس مال الفائزين، وأول أقدام المريدين، ومفتاح استقامة المائتين، ومطلع الاصطفاء والاجتباء للمقربين» [إحياء علوم الدين، 2/4].

وأصول المقامات مستخرجة من الكتاب والسنة، ولكل مقام دليل؛ فأصل مقام التوبة، ما ورد فيه من أدلة وآيات تحت على التوبة، وأصل مقام الورع ما ورد فيه آيات، ومقام الزهد كذلك، ولكل مقام أصل ودليل.

2. الأحوال بدايات والمقامات ثمرات

المقامات ثمرة الأحوال؛ ذلك أن «حسن الأعمال نتائج حسن الأحوال، وحسن الأحوال من التحقق في مقامات الإنزال، فلا بد أن يكون سلوك مقام الزهد حالاً، ثم مقاما، وكذلك: الورع

والرضا، والتسليم، والمراقبة والمشاهدة وغير ذلك، وهذا هو الذوق الصريح، وأما من كان يأخذها من الكتب ويقلد فيها فلا تصح مشيخته، وضرره أكثر من نفعه، ولم يكن أيضا درى مقاصد الرجال في عبارتها وإشارتها ورموزها وألغازها» [الفتوحات الإلهية، لابن عجيبة، ص 323].

ثالثا: الفرق بين الأحوال والمقامات

كثر الاشتباه بين الحال والمقام، فاختلف أرباب الطريقة في ذلك، وتباينت عباراتهم فيه، وعدَّ بعضهم الحال مقاما؛ غير أن الاختلاف في اللفظ يدل على الاختلاف في المعنى، ومهما يكن من اتصال بينهما فإن بينهما فرقا، ولكل منهما معنى وسرٌّ في الاسم، ومما قيل في ذلك: سمي الحال حالا لتحوله، والمقام مقاما لثبوته واستقراره، وقد يكون الشيء حالا ثم يصير مقاما.

وكل فضيلة فيها حال ومقام، فالتوبة فيها: حال، ومقام، والزهد: حال، ومقام، والتوكل: حال، ومقام، ولا مقام إلا بعد سابقة حال، كما أنه لا تفرد للمقامات دون سابقة الأحوال؛ ذلك أن «الحال هو فضل الله ولطفه بقلب العبد، دون أن يكون لمجاهدته تعلق به؛ لأن المقام من جملة الأعمال، والحال من جملة الأفضال، والمقام من جملة المكاسب، والحال من جملة المواهب، فصاحب المقام قائم بمجاهدته، وصاحب الحال فانٍ عن نفسه، ويكون قيامه بحال يخلقه الحق تعالى فيه» [موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي، ص 267].

وممن بيّن الفرق بين الحال والمقام من أرباب التصوف الشيخ ابن عجيبة -رحمه الله- إذ قال: «كثر الاشتباه بين الحال والمقام، واختلفت إشارات المشايخ في ذلك ووجود الاشتباه لكان تشابههما في نفسيهما وتداخلهما، فترأى للبعض الشيء حالا وترأى للبعض مقاما، وكلا الروايتين صحيح لوجود تداخلهما، ولا بد من ذكر ضابط يفرق بينهما، على أن اللفظ والعبارة عنهما تُشعر بالفرق؛ فالحال سمي حالا لتحوله، والمقام مقاما لثبوته واستقراره، وقد يكون الشيء بعينه حالا، ثم يصير مقاما، مثل أن ينبعث من باطن العبد داعية المحاسبة، ثم تزول الداعية بغلبة صفات النفس، ثم تعود، ثم تزول، فلا يزال العبد حال المحاسبة تعاوده الحال، ثم يحول الحال بظهور صفات النفس إلى أن تتداركه المعونة من الله الكريم، ويغلب حال المحاسبة فتتقهر النفس وتنضبط، وتتملكها المحاسبة، فتصير المحاسبة وطنه ومستقره ومقامه، ثم ينازله حال المراقبة، فمن كانت المحاسبة مقامه تصير له المراقبة حالا، ثم يحول عنه حال المراقبة لتناوب السهو والغفلة في باطن العبد، إلى أن ينقشع ضباب السهو والغفلة، ويتدارك الله عبده بالمعونة، فتصير المراقبة

مقاما بعد أن كانت حالا ، ولا يستقر مقام المحاسبة قراره إلا بنازل حال المراقبة ، ولا يستقر مقام المراقبة إلا بنازل حال المشاهدة ، فإذا مُنح العبد نازل حال المشاهدة استقرت مراقبته وصارت مقامه ، ونازل المشاهدة أيضا يكون حالا ويحول بالاستتار ، ويظهر بالتجلي ، ثم يصير مقاماً ، وتتخلص شمسه من كسوف الاستتار ، ثم في مقام المشاهدة أحوال وزيادات وترقيات من حال إلى حال أعلى منه ، كالتحقق بالفناء والتخلص إلى البقاء ، والترقي من عين اليقين إلى حق اليقين ، وحق اليقين نازل ، وكذلك التوبة ، والورع ، والزهد ، والتوكل ، والرضا ، والتسليم ، تكون أحوالا ، ثم تصير مقامات . [الفتوحات الإلهية، ص 189 بتصرف].

وعلى هذا؛ فالحال تغير الأوصاف على العبد؛ فإذا استحكم وثبت فهو المقام ، فالوصف يسمى مقاما إذا ثبت وأقام ، فإن كان عارضا سريع الزوال سمي حالا ، والحال يرد بمحض الموهبة من غير تعمل ولا اجتلاب ، والمقام ما يتحقق من مقامات اليقين بتكسب وتطلب ، وهي تكون أولا أحوالا ، ثم تصير مقامات بعد التمكين ، كالتوبة تحصل ثم تصير مقاما وهي التوبة النصوح ، ولا يرتقي مقاما حتى يستوفي أحكامه ، وقد قيل «الأحوال مواهب والمقامات مكاسب» لاكتسابه إياها بالمداومة على الأعمال ، وكل ذلك بفضل الله وتوفيقه ، ويمكن تقريب الفرق بينهما باعتبار الأحوال مواجيد ، والمقامات طرق المواجيد . ولا تعارض في أن تكون الأحوال مواهب فائضة على العبد من ربه ، أو واردة عليه ميراثا للعمل الصالح المزكي للنفس المصفي للقلب ، أو نازلة من الحق تعالى امتنانا وتفضلا وإنعاما ، ولذا حقق بعضهم أن الجميع مواهب .

التقويم

1. أعرف «الحال» و«المقام» .
2. أحدد الفروق بين الأحوال والمقامات ، وأمثل لذلك بأمثلة .
3. أبين أهمية «الأحوال» و«المقامات» في سلوك طريق التصوف .

الاستثمار

قال الإمام أحمد المحلي «وأما علم الأحوال والمنازلات وما يجري فيهما من آداب ومعاملات، فذلك هو الذي اختص به أهل هذا الشأن، وللناس فيه طريقان: طريق رؤية الحق من أول قدم. والعمل على ذلك بالانحياش إليه، وهو طريق الشاذلية ومن نحا نحوهم. وطريق رؤية النفس وإطلاع الحق عليها، والعمل على ذلك، وهي طريق الغزالي ومن جرى مجراه، وكل منهما مستند للحديث «أن تعبد الله كأنك تراه» وهذا للأولين أي الشاذلية. «فإن لم تكن تراه فإنه يراك» وهذا للآخرين فافهم» [المفاخر العلية في مآثر الشاذلية، ص 55].

أتأمل النص، وأبين الفرق بين طريق «الشاذلية» وطريق «الغزالي» في الأحوال والمنازلات.

الإعداد القبلي

أبحث عن أدلة من القرآن والسنة تدل على وجود الأولياء والكرامات.